

القسم الثالث

العمل الجماعي
والنضحية بالنفس

الفصل الثاني عشر

مقدمة

43

تستمد الحركة الجماهيرية حيويتها من نزعة أتباعها إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. وعندما نغزو نجاح حركة ما إلى عقيدتها ومذاهبها ودعايتها وقيادتها وقسوتها، وما إلى ذلك، فنحن في حقيقة الأمر، نشير إلى أدوات وآليات تقود إلى العمل الجماعي والتضحية بالنفس. ولعلّه من المستحيل أن نتفهم طبيعة الحركات الجماهيرية ما لم ندرك أن همها الأساسي هو خلق قنوات للعمل الجماعي وللتضحية بالنفس، وتطوير هذه القنوات وتحسينها وإبقاؤها. إن التعرّف على هذه القنوات يقودنا إلى المنطق الداخلي لهذه الحركات والأفكار التي تسودها والممارسات التي تقوم بها. وأي جماعة منظمة تحاول، لسبب أو لآخر، أن تخلق وحدة مترابطة واستعداداً دائماً للتضحية بالنفس تكتسب، عادة، الكثير من سمات الحركات الجماهيرية، سواء كانت سمات طيبة أو سيئة. ومن ناحية أخرى، فإن الحركة الجماهيرية تفقد كثيراً من الخصائص التي تميّزها عن بقية التنظيمات عندما تتراخى وحدتها الجماعية وتعترف بالمصلحة الذاتية أساساً مشروعاً لنشاطها. ونلاحظ أن الدول الديمقراطية في أوقات السلم والرخاء تتكوّن من تنظيمات مؤسسية لمواطنين أحرار، أما

حين يصبح بقاء الدولة مهددًا، وعندما تحاول تعزيز وحدتها وغرس روح التضحية بين مواطنيها فإنها تكتسب، إلى حد ما، خصائص الحركة الجماهيرية. والأمر نفسه يسري على التنظيمات الدينية والثورية: تتحول هذه التنظيمات إلى حركات جماهيرية لا بسبب المذهب الذي تبشر به أو البرنامج الذي تعلنه، بل بسبب وحدتها واستعداد أتباعها للتضحية بالنفس.

وما يهمنا هنا هو أن المحبطين إيجابًا شديدًا تنمو لديهم، على نحو عفوي، الرغبة في العمل الجماعي، وفي الوقت نفسه، في التضحية بالنفس، وهكذا فإنه من الممكن تفهم هذه النزعات والأساليب التي تتبع لغسل الأدمغة إذا راقبنا كيف تولد داخل العقل المحببط.

ما الذي يقلق المحبطين؟ إنه الشعور أن أنفسهم ميتة وميؤوس منها. أن رغبة المحبطين الأساسية هي أن يهربوا من أنفسهم، وهذه الرغبة تتجسد في النزعة إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. إن الاشمئزاز من النفس غير المرغوب فيها، وهاجس نسيانها وطمسها وإخفاءها هو الذي يوجد الرغبة في التضحية بالنفس، وفي العمل الجماعي حيث تذوب النفس في المجموع. بالإضافة إلى هذا، فإن الاغتراب عن النفس توأكبه، عادة، مشاعر وعواطف كثيرة تبدو غير مترابطة، إلا

أن التأمل فيها يظهر أنها عوامل أساسية في التوجه إلى العمل الجماعي وإلى التضحية بالنفس. وبعبارة أخرى، لا ينتهي دور الإحباط بإيجاد الرغبة في العمل الجماعي والتضحية بالنفس، بل إنه، فوق ذلك، يخلق الآلة الضرورية لتحقيق هذه الرغبة. إن احتقار الحاضر، والقدرة على تخيل أشياء غير واقعية، والنزعة إلى الكراهية، والاستعداد للتقليد، وسرعة التصديق، والاستعداد لتجربة المستحيل، كل هذه المشاعر، وكثير غيرها، تزحم عقل الإنسان المحبط، وتدفعه إلى الأعمال اليائسة.

من المتوقع أن القارئ لن يقتنع بكثير مما سيجيء في هذا القسم من الكتاب، وقد يشعر أن بعض الأشياء بولغ في تضخيمها، بينما أهملت أشياء أخرى. على أننا لا ندعي أن هذا كتاب أكاديمي موثوق. هذا الكتاب، على العكس، يحتوي على أفكار، مجرد أفكار، ولا يرفض «أنصاف الحقائق» إذا كانت تحتوي على منهج جديد، وتساعد على توليد أسئلة جديدة. يقول بيجهوت^(*): إذا أردت إيضاح مبدأ ما فعليك بكثير من المبالغة وكثير من الحذف».

(*) كان والتر بيجهوت (1826 - 1887م) صحفياً ومحللاً سياسياً وتولى رئاسة «تحرير الأيكوترست» وكان متعدد المواهب والإبداعات (المترجم).

إن القدرة على العمل الجماعي تمشي، عادة، يداً بيد مع القدرة على التضحية بالنفس، وعندما نسمع عن جماعة لا تخاف الموت فعلياً أن نستنتج أن هذه الجماعة مترابطة ترابطاً قوياً وموحدة توحيداً تاماً⁽¹⁾. ومن الناحية الأخرى، فعندما نجد فرداً ينتمي إلى جماعة مترابطة ترابطاً كاملاً فسوف نجد، على الأغلب، لا يخاف الموت.

يتطلب كل من العمل الجماعي والتضحية بالنفس الإنقاص من قيمة النفس. ولكي يصبح الفرد عضواً في جماعة مترابطة، فإن عليه أن يتخلى عن الكثير: عن خصوصيته، وعن آرائه الشخصية، وفي كثير من الحالات عن ممتلكاته. ومن هنا فإن تدريب الفرد على العمل الجماعي يجعله قادراً على إنكار الذات، ومن ناحية أخرى، فإن الفرد الذي يحتقر نفسه يزيل الحاجز الصلب الذي يحول بينه وبين الذوبان في الآخرين. كل عوامل الارتباط بالمجموعة، والحالة هذه، تحفز الشخص على التضحية بالنفس، والعكس صحيح. وسنحاول في الصفحات القادمة الفصل بين النزعتين، العمل الجماعي

(1) تجد «في قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية أن أشد الأشخاص

شعوراً بالوحدة هم أقدرهم على خوض المعارك» انظر:

w. g. sumner, war And other Essays, (New Haven: Yale university Press, 1911), p. 1.

والتضحية بالنفس، لتبسيط القضية مدركين، في الوقت نفسه، أن النزعتين، في حقيقة الأمر، مرتبطتان ولا ينفصلان.

إن آلية غرس الاستعداد للقتال والموت تتكون من فصل الفرد عن نفسه، عن شخصه المكوّن من لحم ودم، وعنه من أن يكون ما تريده نفسه الحقيقية أن يكون. ويتحقق هذا الهدف بتذويب الفرد في المجموعة الموحّدة المترابطة؛ بإعطائه نفساً جديدة متخيلة؛ بأن تغرس فيه اتجاهها إلى احتقار الحاضر وشغفًا بالأشياء القادمة التي سوف تجيء في المستقبل؛ بأن نضع حجاباً بينه وبين الحقائق؛ بأن نشحنه بالعواطف المتفجرة على نحو يجعل من المستحيل عليه أن يعيش مع نفسه.

